أم عيسى (مريم)

عليها السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

أم عيسى ـ مريم بنت عمران

قال لي ولدي: ومَن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم عيسى عليه السلام، واسمها مريم بنت عمران، كان والدها يدعى: عمران بن ماثان وأمها تدعى: حنة بنت فاقود، وهي أخت الأشباع بنت فاقود زوج النبي زكريا عليه السلام، وأم النبي يحيى عليه السلام توفي والدها عمران وأمها حنة حامل بها.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز قصة ولادتها فقال:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧].

وكان من الطبيعي أن يقوم النبي زكريا عليه السلام برعاية أخت زوجه بعد وفاة زوجها حتى تلد، ولما وضعت أنثى سمتها مريم، فأوحى الله إلى نبيه زكريا عليه السلام أن يكفلها، ونفّذ زكريا أمر ربه، وأولاها اهتمامه وعنايته بشكل أكبر بعد وفاة حنة أيضاً.

وكان زكريا عليه السلام إذا دخل على مريم غرفتها وجدها مستغرقة في مناجاة ربها، والصلاة له، ووجد لديها الفاكهة في غير مواسمها، فكان يرى فاكهة الصيف لديها في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، فإذا سألها عن مصدر هذا الرزق الذي أمامه، أجابته قائلة: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

وهذه كرامة أعطاها إليها الله سبحانه وتعالى منذ أن اصطفاها، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران ٤٢ ـ ٤٣]، فإذا علمت يا بني أن الله يرزقها، والملائكة تخاطبها، وأن نبي الله زكريا أمره الله أن يكفلها أدركت مدى فضلها بعد تطهيرها واصطفائها على نساء العالمين؟.

قال ولدي: وماذا كان من أمر مريم بعد يا أبي؟

قلت: لقد نذرتها أمها للعبادة والتقرب إلى الله، والتفرغ لنجواه، فالتجأت إلى الكنيسة، فوجدت فيها شاباً يدعى: يوسف النجار، وقد تفرغ أيضاً لعبادة الله واعتزل الناس الذين يعيشون خارج الكنيسة، وكان يوسف ومريم إذا نفذ ما لديهما من الماء، حمل كل منهما قُلَّتَه، وذهبا إلى مغارة قريبة فيها نبع ماء عذب، فيملآن القلتين، ثم يعودان إلى الكنيسة بهما.

ذات يوم شديد الحرارة نفذ الماء لدى مريم فسألت يوسف مرافقتها إلى المغارة لملء القلة، فأخبرها أنه لا يرغب

في ذلك؛ لأن ما عنده من الماء يكفيه، فخرجت مريم من الكنيسة بمفردها، ولما انتهت إلى المغارة، فوجئت برجل أمامها، ولم يكن ذلك الرجل إلا جبريل عليه السلام، أرسله الله، لأمر أراده وقضاه. وقد ذكر الله في كتابه العزيز حكاية هذا اللقاء فقال:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩].

لكن مريم كانت امرأة طاهرة عفيفة، ولما سألته كيف يكون لها غلام، وهي ليست بذات زوج؟ قال لها جبريل: إن هذا الأمر سهل على الله عزَّ وجلَّ، وسيكون مولودها آية للناس، ودليلاً على قدرة الخلّاق العظيم، والذي أوجد آدم عليه السلام من غير أبوين لا يعجز عن خلق ولد من أم دون أب.

ثم أخبرها جبريل أن الأمر قد قضي بمشيئة الله ولا مردَّ له، وهو نافذ لا محالة.

ونفخ جبريل عليه السلام في جيب مريم فحملت بإذن الله، ثم عادت بقلّتها إلى الكنيسة.

وكان تُقى يوسف ومريم وورعهما، واجتهادهما في عبادة الله، والتماس طاعته ورضاه ليست محل شك أو موضع ارتياب.

غير أن أمارات الحمل بدأت تظهر على مريم، وارتاب يوسف بشأنها، فاستنكر ذلك، واستعظمه، لكنه ذكر صلاحها وورعها، فنفى أن تكون قد تورطت، وكان يحدِّث نفسه، ولا

يكلمها بهذا الأمر، ولما أحدقت به الوساوس، ولم يعد يحتمل وطأتها قرر أن يفاتحها به فقال: إن في صدري لقولاً ثقل عليَّ، وأريد أن أحدثك به؛ لأن احتمالي قد ضاق عنه، قالت: وما ذاك؟ قال: أينبت الزرع بدون وجود بذار؟ قالت: نعم، قال: أتنبت شجرة بغير ماء يسقيها؟ قالت نعم، قال: أيكون ولد من دون رجل؟ قالت: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قالت: لقد خلق الله الزرع أول ما خلقه بدون بذار، وأنبت الشجر دون أن يرسل المطر فيسقيه، أم تراك تعتقد غير ذلك، قال: لا، بل أعلم وأقول: إن الله على كل شيء قدير، وليس يعجزه شيء، ويكفيه أن يقول لشيء: كن فيكون، فقالت: ألم تر أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: بلى، وأدرك يوسف أن ما بها هو من عند الله عزَّ وجلَّ، ولم يسألها عن حملها، وأخذ يكفيها مؤونة عملها، ويقضي عنها واجباتها، ويشفق عليها مما لحق بها من الضعف والاضطرار.

ولما أصبح وضعها قريباً، آثرت أن تترك البلدة التي هي فيها بوحي من الله كي لا يعيروها ويقتلوا ولدها، والتقت بخالتها، وهي ـ يومئذٍ ـ حبلى، وقد بُشرِّت بيحيى، وشعرت أم يحيى أن ما ببطنها خَرَّ ساجداً لوجهه معترفاً بعيسى، فأفضت لها بحملها.

ثم جاءها يوسف بحمار فحملها عليه، وخرج بها من البلد، فلما تجاوزت أرض قومها أتاها المخاض، فلجأت إلى جذع نخلة تستتر به، فحفت بها صفوف من الملائكة، واندفعت من فرط استحيائها تقول: ليتني مت، ليتني كنت شيئاً منسياً، وكلمها جبريل عليه السلام، ودعاها ألا تحزن، وأمرها بهز جذع

النخلة، فتساقطت عليها حبات الرطب، وكان الوقت شتاء.

وكان يوسف ينتظر قريباً منها، حتى وضعت مولودها عيسى عليه السلام، ثم مضى بهما إلى أرض مصر، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنين: ٥٠].

ولما أتم عيسى الثانية عشرة، وكان نازلاً في دار مع أمه يملكها دهقان من أهل مصر، وكانت لديه غرف يؤوي فيها المساكين لقاء أجر زهيد.

وذات صباح، استيقظ الدهقان فوجد أن خزانته قد سرقت، وحزنت مريم كثيراً لما أصاب الدهقان، ورأى عيسى عليه السلام حزن أمه، فقال لها: أتحبين أن أدله على ماله؟ قالت: أجل يا بني؟ قال: مريه أن يجمع لي مساكين داره كلهم، فلما اجتمعوا، قام إليهم عيسى، فرأى فيهم رجلين أحدهم مقعد والآخر أعمى، فحمل المقعد وجعله على كاهل الأعمى، ثم أمر الأعمى أن ينهض به، فقال له الأعمى: إنما أنا ضعيف ولا أقوى على حمله، قال له عيسى: ولكنك قويت بالأمس وحملته.

ثم أجبروا الأعمى على النهوض بالمقعد، فلما نهض وصل المقعد إلى الخزانة التي يضع فيها الدهقان ماله، فقال عيسى عليه السلام، هذا ما فعلاه بالأمس، حيث اعتمد الأعمى على قوته والمقعد على عينيه، ولم يجد الأعمى والمقعد بداً من أن يقرّا بالحقيقة كما نطق بها عيسى عليه السلام، وردا للدهقان ماله، فعرض نصفه على عيسى وأمه، فقالت له مريم: ما خُلقت لهذا، فقال لها: أعطه لابنك، فقالت: إنه أعظم شأناً مني، وكانت تلك أول آية تجري على يد عيسى عليه السلام.

وحين أراد الدهقان أن يزوج ابنه، دعا خلقاً كثيراً من أهل مصر لحضور الزفاف، فلما أراد أن يسقيهم شراباً وجد جرار الشراب فارغة، ووقع في حرج شديد، فقرر عيسى إخراجه من ورطته، فدخل الغرفة التي فيها الجرار ومسح بيده عليها، فامتلأت جميعاً بالشراب، ولما رأى الناس ذلك صاروا يتحدثون بما يجري على يديه من الخوارق، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى أمه أن تخرج به إلى الشام، فمكثا فيها حتى أصبح عيسى في الثلاثين من عمره.

قال ولدي: ألا تحدثني عن معجزات عيسى عليه السلام، يا أبي؟

قلت: بلى يا بني، وكان أول معجزاته أن حمله في بطن أمه، كان حملاً خفيفاً خلافاً لما تشعر به الحوامل، ونطقه في المهد، وذلك أمر لم يكن مألوفاً لدى الناس، وقد حكى القرآن الكريم عن تلك المعجزة الخارقة فقال مبيناً لحظة دخلت مريم على قومها وهي تحمله بين يديها: قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

ولكن مريم لم ترد على مقالتهم؛ لأنها كانت تنفذ نذراً لله بالصوم عن الكلام، وإنما اكتفت بالإشارة إليه بيدها، وكأنها تقول لهم: ها هو ذا أمامكم، فسلوه عما بدا لكم، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩].

وبقدرة الله جلَّت قدرته، نطق الوليد في مهده، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٤].

لم ينطق عيسى بكلمة أو كلمتين من مألوف كلام الأطفال، بل خاطبهم خطاب رجل واعٍ لا يحسنه الرجال، إنه عبد الله، وقد جاءهم بكتاب من الله، وأوامر ينبغي العمل بها، وواجبات يجب أن تؤدى، وكان أهمها الصلاة والزكاة، إذاً لم يكن الطفل الذي يكلمهم طفلاً عادياً، بل نبياً مرسلاً بدعوة الناس إلى الله من أجل أن يعبدوه وحده، وبيَّن لهم أنه موصى ببر والدته مريم وأنه لطيف المعشر، ليِّن العريكة، ليس بالفظ ولا بالغليظ ولا بالشقي، وذلك ليعلموا أنه رجل مألوف فلا داعي لأن ينفروا منه، ويسعوا للبعد عنه.

قد جاءهم بالخير، فهل كانوا به راضين؟ كلا، لقد اختلفوا فيه، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، وويل للكافرين من تكذيبهم رسول رب العالمين.

وبدأ عيسى عليه السلام يوافيهم بالمعجزات الواحدة تلو الأخرى، ولكن كان أكثرهم عن الحق معرضين.

خلق لهم من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه، فكان طيراً حقيقياً كسائر الطيور يأكل ويشرب ويطير ثم يخط، وتملكتهم الدهشة مما رأوا.

وجاءوه بأناس قد أصابهم المرض على اختلاف ألوانه وأشكاله، وما أسرع ما شفاهم حتى ولو كان مرضهم عضالاً ـ أي: مستعصياً لم يكن يشفى منه قبل عيسى ـ واحتاروا بين مصدق ومكذِّب.

وعرضوا عليه مولوداً أعمى من قبل الولادة ويسمى: الأكمه، وآخر فقد بصره بعدها، فرد عليهما البصر.

واعلم يا بني، أن هذه المعجزات لم يكن ينسبها عيسى إلى نفسه، بل كان يخبرهم أن يفعلها بإذن الله، وبعونه، وتأييده.

قال ولدي: قرأت في كتاب الله تعالى، قول الله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، **وقد حدثتني يا أبي عن بعض معجزات نبي الله عيسى عليه السلام دون أن تحدثني عن إحيائه للموتى!**

قلت: لقد كان إحياء الموتى من جملة معجزات عيسى عليه السلام، وكما أخبرتك فإن أية معجزة تتم على يديه لم تكن لتتم إلا بعد أن يأذن الله ويرضى؛ لأن عباد الله جميعاً ليس لهم من الأمر شيء إلا أن يشاء الله الذي يدبر الأمر في السماوات والأرض وكان الناس يأتون إلى عيسى ويسألونه إحياء بعض موتاهم، فكان يحيي لهم من يسمونه له سواء أكان من أقاربهم أم لا!

وذات مرة جاءه رجل فقال: يا نبي الله، لقد لاحظت أنك تلبي رغبة أناس يطلبون أن يروا من مات منذ أمدٍ قريب، فهل تستطيع أن تحيي أحد الأموات الأبعدين؟

وأوحى الله إلى نبيه أن يرد بالإيجاب، لأن الأمر بيد الله، فقال عيسى للرجل: نعم، ومن تريد أن آتيك به من الموتى؟

قال الرجل: إني أريد أن أرى أحد الذين شهدوا طوفان نوح وركبوا معه سفينته، وبالتحديد أحب أن تحيي سام بن نوح عليه السلام.

وانطلق عيسى بن مريم مع ملأ من الناس وبينهم الرجل الذي سأله، حتى وصلوا إلى الفلاة، فأخذ نبي الله حفنة من التراب بيده، ثم تركها وقال: قم بإذن الله يا سام بن نوح، فظهر لهم شيخ بادي الكبر وراح يمسح التراب عن رأسه ثم قال: ما الأمر؟ هل قامت القيامة؟ قيل له: لا، وبعد أن كلمه الناس، قال الرجل الذي طلب إحياءه: يا نبي الله، دعه يذهب معنا إلى منازلنا ليراه أهلنا، فَرَدَّ عيسى عليه السلام بقوله:

كيف يذهب معكم وهو قد استهلك رزقه؟ فالعمر والرزق يابني مرتبط أحدهما بالآخر، وكلاهما ينتهيان في وقت واحد. ثم التفت عيسى عليه السلام إلى سام وقال له: عد كما كنت، فعاد تراباً واختلط بتراب الأرض.

قال: ألم يبشر عيسى عليه السلام قومه بمولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

قلت: بلى يابني لقد فعل فقد ورد في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾، [الصف: ٦].

وآمن بعيسى بعض بني إسرائيل وصدقوه، وراح يجتمع معهم سراً ويعلمهم مما علمه الله، وأصبح له أتباع مقربون سموا بالحواريين، وأخذت بنو إسرائيل تكيد لعيسى عليه السلام وتسعى للتخلص منه، لكن تحركه وتنقله كان يتم ليلاً وفي الخفاء بعيداً عن أعين الرقباء.

وأعلن اليهود أنهم يعرضون جائزة مالية لمن يدلهم على مكان اجتماع عيسى بأتباعه حتى يقبضوا عليه ويصلبوه بعد أن استقر رأيهم على التخلص منه نهائياً. غير أن أحد الحواريين قيل: إن اسمه يهوذا جاء إلى اليهود وسألهم عما يعطونه لقاء إخبارهم بمكان اجتماع عيسى بأصحابه، والوقت الذي يجتمعون فيه، فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ثمناً لخيانته.

وأخبر الله نبيه بما صنع «يهوذا» وألقى على الخائن شبه عيسى، فلما كان موعد الاجتماع، دخل جماعة من اليهود المسلحين مكان الاجتماع عَنْوَة، وفتحت كوة في سقف المكان، ورفع الله نبيه إليه، واقتاد اليهود شبيهه الذي أخبر عنه ثم انطلقوا به وصلبوه أمام الناس.

وقد سجل القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

ونجَّى الله رسوله وجزى الخائن بسوء ما فعل.

أما عن بشارة أم عيسى بالجنة فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خط في الأرض أربعة خطوط، فقال: أتدرون ما هذه؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون. رحم الله تلكم النساء الفواضل، وجزاهن خير الجزاء.